متأخّرًا كعادتي

طه عدنان
شاعر وكاتب مغربي،
من مواليد ١٩٧٠

سارَة وأنا
نستَقِلُّ المترو
ننزوي في الرُّكْن
أُصغي للذي يجبُ:
....
«قُلْتِ الحليبَ؟
لن أنساهُ حبيبتي
ولا النبيذَ المَغربيَّ
ولا السجائرَ
سأقْتني الهَريسةَ أيضًا
....
سأُهاتِفُ باربرا
هذا الصّباحَ، أجَلْ
سأدعوها إلى السَّهرةِ
....
موعدُنا البوزارُ[١]
هذا المساءْ.»

في محطّةِ شومان[٢]
تتأهّبُ سارةُ للنّزول
يتدافعُ حَوْلها قَوْمٌ
ببَزّاتٍ داكنةٍ
وياقاتٍ بيضاءْ
متوعّدين نهارَهُمْ
بأكثرَ مِن مِلَفٌ
وأكثرَ مِن قَرارْ
وعلى صدورِهِمْ
تتراقصُ «البَادْجَاتُ»
مِثلَ القلائدِ زرقاءْ.

في محطّةِ شومان
تَهْمسُ سارةُ
في فمي
مودّعَةً: «أُحِبُّكَ..»
«أُحِبُّكِ..» أهمسُ طَرِبًا
ومضْطرِبًا؛
فهذا الهَمْسُ
مِنْ شَفَةٍ
إلى شَفَةٍ
تُحاصِرُه عُيونٌ
إخْوَةٍ في الدِّينْ
يصعدون المترو زرافاتٍ
بسرابيلَ مُفَضْفَضَةٍ
كما لوْ على رواحِلَ قَفَلوا
من المسجدِ[٣]
خاشعينْ.

مَسَحْتُ على فمي
ببَطْنِ الكَفِّ:
آثارُ الهَمْسِ حمراءُ
مِثْلَ جريمةٍ
عبثًا أُداريها،
أنا الأَخْشى
على الحُبِّ ـ سِرِّ العاشِقينْ ـ
مِنَ الجَهْرِ
ومِنْ أَعْيُنِ الرُّقَباءْ؟

تنزِل سارة
من المترو

---

(١) قصر الفنون الجميلة.

(٢) محطة مترو في الحيّ الأوروبيّ حيث المجلس والمفوضيّة الأوروبيان.

(٣) المسجد الكبير لبروكسل بشومان.

تشقُّ الصُّفوفَ بعِطْرِها
وتَنْفُخُ في كفِّها
تُرْسِلُ لي قُبْلةً
في الهواءْ
أُوَدِّعُها بتلْويحةٍ مِنْ يدي
عَجْلى
وأمضي باحثًا عن مقْعَد.
سأبْدَأُ فصْلًا جديدًا
من روايةِ بِنْبينَ[٤] الأخيرةِ؛
فمازال في الرِّحلةِ مُتَّسَعٌ.
ولأنَّ حَظّي -
مثلَ قلبي - داعِرٌ
وَلِعٌ،
فَقَدِ انْتَهَيْتُ
مِثْلَ زُنْبورٍ
جِوارَ وَرْدةٍ شقراءْ
تَسْتَدْرِجُ العِطْرَ فَوّاحًا
إلى رُكْنِها؛
وآيَتُها أنْ تَفتَّحَتْ مِنْها
تَنّورةٌ حمراءْ.

أَفْتَحُها (الرِّوايَةَ)
جَنْبَ القصيدةِ
- كيْفَما اتَّفَقَ -
أُطِلُّ مِنْ شاهِقِ السَّرْدِ
على ما انْهالَ
مِنْ شَبَقٍ
وسَقى
عُشْبَهُما العَيْنَيْنْ.
أتلَصَّصُ
كالرُّمْحِ منتصِبًا
على الفخِذَيْنْ
(لا غُبارَ على لُجَيْنِهما
كأنَّما فُتِنا بنارِ الغَرامْ)
وأَرْقُبُ كهْلًا عُرَّةْ
بعيْنَيْ ذئبٍ
وهيْئَةِ خنزيرٍ
يَنْفثُ لهَبًا من منخريْهِ كتنّينِ
منذ زمانٍ لَمْ تَمْسَسْهُ امرأةٌ
ولم يَمْسَسْ... منذ زمانْ.
بمخالِبِ النّظَرات
يَنْهَشُ لحمَها
فترْتبِكُ
لتُرْخي على الفخِذَيْنِ يديْنِ
ناعمتيْنِ
وأناملَ مشْبوكةً
كغُصْنِ سلامْ.

وحين يَضيقُ الحِصارُ
بها
تَسْحَبُ جارتي حقيبتَها
تُغَطّي سِرَّ فِتْنَتِها
تُشيحُ بوجهِها القَمَريِّ
عَبْرَ نافذةِ الإغاثة
تتلألأُ طلْعَتُها في الزُّجاج
وهي تُراقِبُهُ؛
وحين بِنَظْرةٍ
- آه، مِنْ نَظْرَتِها -
تُداهِمُهُ،
تراهُ مشْغولًا بها
عَنْها،
تمامًا كما انْشَغَلْتُ
عن الرِّوايةِ
بما ذابَ مِنْ فِضَّتِها
تَحْتَ وابلِ نيرانِهِ
....
في الأقلّ
عَيّنا شاعِرٍ
هذّبَتْهُما الاستعارة،
رَوَّضَتْ فيهما الذِّئْبَ
ليبْدو وديعًا
كالحَمامْ.

في آرْلْوا[٥]
لَمْ أغيِّر خَطَّ المترو
كُلُّ الطرُق تؤدّي...
فالرفيقُ قبْلَ الطريقِ
وأنا برفْقتِها مبتهِجٌ!
لن أهبِطَ في ريبوكور[٦]
سأُواصِلُ حتى الكونْتْ دو فْلانْدَرْ[٧]
فاليوْمَ خميسٌ
والسوقُ هنالكَ مُنْدَلِعٌ
في مولَنْبِك[٨]
أشتري، ربَّما، فاكهةً
بطراوةِ هذا الجِوارْ.

في المحطَّةِ المركزيّةِ[٩]
لَمْلَمَتْ جارتي
ما تناثر من نَداوَتِها؛
هَرْوَلَتْ
كأنّما لتُدْرِك القطارْ.
لَرُبَّما تأخّرَتْ
عن شُغْلِها مثلي؛
لَرُبَّما حبيبُها
هناكَ في انْتظارْ.

ها غادرَتْ جارَةُ المترو
لتَجْلس موْضِعَها سمراءُ
- مِنَ الكونغو، أظُنُّ -
تجرُّ رِدْفَيْنِ هَتونَيْنِ
كلّما ارتطَما
أرْعَدَتْ
وأبْرَقَتْ
ورَمَتْ بالشَّرارْ.

---

(٤) **نجوم سيدي مومن**، للروائيّ المغربيّ ماحي بِنْبين.

(٥) محطة مترو تتقاطع فيها الخطوط.

(٦) محطة مترو في بلدية مولنبك.

(٧) محطة مترو في بلدية مولنبك.

(٨) بلدية ببروكسل معروفة بتنوّع ساكنتها مع حضورٍ مكثّفٍ للجالية المغربيّة.

(٩) محطة مترو وقطار في مركز المدينة.

أفتَحُ الـ «مترو»[١٠]
ـ الجريدةَ ـ
لأقْرأ آخِرَ الأخبارْ،
أخبار عالَمِنا العربيِّ
أخيرًا... أخيرًا ثارْ.
لكنّ عَجَرِيَيْنِ
جاءا بعَزْفٍ نَشازٍ
فيما زميلةٌ لَهُما
تَلْبَسُ بُستانًا
بأزهارٍ وطيورْ
عَن بِضْعِ شموسٍ
مِنْ مَعْدِنٍ ذَهَبٍ
يَفْتَرُّ مِنْها الثَّغْرُ
وهْيَ تدورْ
على جمهورٍ غَفورٍ
تدورُ
لتَسْألَ مالًا ونُذورْ.

وجاء أيضًا:
مُشَرَّدون
يَسْتَظْهِرون قِصَصًا متشابهةً
بلكْناتٍ شتّى؛
مراهِقونَ مغاربةٌ
يحمِلونَ ملاهِيَ متنقِّلةً
في جُيوبِهم
ويُحَرِّكون رؤوسَهم
مُدَنْدِنينَ غيرَ مُبالين؛
سِنِغالِيٌّ
ـ خمَّنْتُ ذلكَ مِنْ هيئَتِهِ ـ
يَعْرِضُ للبيْعِ كُتُبًا
ومآسيَ سَوْداءْ؛
أتراكٌ أَوْ أكرادٌ
ـ لا أدري؛
رجالٌ ونِساءْ؛
شبابٌ مِن مخْتلَفِ التَّقْليعاتِ
أَتَوْا؛
أَزواجٌ وعُشّاقْ؛
أَوغادٌ ولصوصٌ
ـ أحْدسُ ذلك؛

أشكالٌ، ألوانٌ، وصِفاتْ؛
أجناسٌ، أعراقٌ، ولُغاتْ.

في مترو الأنفاقْ
يَرْنو النّهارُ إلى لَيْلِهِ
ساهِمًا
أهبِطُ في الكونْت دو فْلانْدَر
أصْعدُ الدَّرَجَ
ـ السلّمُ الكهربائيُّ مُعطّلٌ ـ
تُطلِقني فُوَّهَةُ المترو
مِثْلَ قذيفةٍ
أخترِقُ العُبابْ.
فالسّوقُ مُزْدَحِمٌ
والقلبُ مُحْتَدِمٌ
والحُبُّ مُنْكَتِمٌ
والبالُ مُصْطَدِمٌ
بِأَلْفِ بابٍ
وبابْ.

كعادتي، متأخِّرًا، وَصَلْتُ
تَسْبِقُني أرانِبُ الوقتِ
أُحاوِلُ أدْرِكُها
ليَدْهَمني، في المَصْعَدِ، الرَّنينْ:
«آلو سارة، لَمْ أصِلْ بَعْدُ
....
حياتي، لَم أصِلْ بَعدُ
أتسمعينْ؟
....
مهلًا، سأُهاتِفُكِ
....
طبعًا، سأُهاتِفُكِ
بعْدَ حينْ.»

أُسْرِعُ لا أَلْوي
على شوْقٍ
أَحُثُّ الخَطْوَ في «الكولْوار»
كدَأْبي كُلَّ تأخيرٍ
وأُوَزِّع «البونجور»
مُتحَرِّجًا

لأبْلِغَ مكتبي
وأُفاجَأ بالمديرِ
والمديرِ العامِّ المساعِدِ
والسِّكْرتيرةِ
وزُملاءَ آخرينَ
ـ يا لَلْفضيحةِ! ـ
قالوا: «زميلُك اليومَ عَليلٌ»
عَلَيَّ أَنْ ألحَق بَدَلًا مِنْه
باجْتماعٍ بَعيدْ.
دَسَسْتُ مِلَفًّا في الحقيبةِ
ـ عَشْرَ أوْراقٍ أَوْ يَزيدْ ـ
وعُدْتُ أَدْراجي
إلى المتْرو
متوَتِّرًا
أُقَلِّبُ الصَّفحاتِ
في ثِقَلِ الجبالْ
فإذا أمامي إذْ جلَسْتُ
قصيدةٌ تخْتالْ:
الصَّدْرُ فيها مُتْرَعٌ،
والحوْضُ ـ يا قَلْبُ ـ مُشْرَعٌ
فَوّارْ.
وأنا التّائهُ
بَيْنَ المِلَفِّ والقصيدةِ
علَيَّ أَنْ أختارْ.

يرِنُّ الهاتِفُ المَحْمولْ:
....
«أهلًا بارْبَرا
سارةُ أخْبرَتْكِ
حسنًا، فَقَطْ، أنا الآنَ مشْغولْ
مَوْعِدُنا البوزارُ جميلتي
....
عُذرًا؟!
....
لَن أتأخَّرَ كعادتي
....
موْعِدُنا البوزارْ.»

بروكسل

(١٠) جريدة يوميّة توزّع مجّانًا في محطّات المترو.